هل لسافل مثلك أن يصبح ملكًا؟

وصار سيره ركضًا، ثم صار ركضه وثوبًا، وتمادى السيد النحال فى سرعته بأكثر مما استطاع خياله الجامح أن يلهمه به، وصار الإعداد لحفل زفافه على الآنسة فوزية حمدان الموظفة بالعلاقات العامة بمجلس الأمة هو المهرجان المثير الذى سيجمع كل شخوص حيواته المتعددة.. نخبة من أهل البلد.. ونخبة من تجار الحشيش.. ونخبة من حرافيش الجراج.. ولا مفر من زيارة ثانية من أمه وأبيه اللذين أتى بهما عنتر مكاوى، وبعدهما عوض وعاشور وعرفة، وشقيقاته، ثم جوقة أمير ونساؤه المتصابيات.. وفى الصدارة موتور اللذات حشمت بركات، وأفراد مملكته فريق الأحجار الكريمة والأنفاس العطرة والدخان السماوى المنعقد دومًا فى فراغ لا يمل من الشبع. وفى صدر الصدارة مندوب الرئاسة.

وقال لنفسه:

ـ «لا زفاف.. بلا حشيش.. ولا فرحة بلا دخان.. ولا بهجة لحشد يهوى السطل دون أن ينسطل..»

* * *

وعندما أخذ أمير يقلب بطاقة الدعوة المذهبة بين يديه كان يعيد قراءة مسمى وظيفة العروس.. ويغمغم..: «متى.. وكيف؟..» لكنه لم يعثر على إجابة إلى أن تاه مع ضيوفه فى هذا الحشد الهائل من المدعوين الذين احتلوا ركنًا من أرض الجراج داخل سرادق غارق فى سماء من الكهرباء البلورية تتصدره كوشة العروسين ومنصة عالية للفرقة الموسيقية.

لم يجلس مندوب الرئاسة طويلًا وتحرك وسط رجاله مودعًا بسلام موسيقى، وخلا

كرسى الصدارة المذهب العالى من رجله الفخيم، وظل الكرسى المجاور الذى كان يشغله السيد أشرف بركات مشغولًا لدقائق قام بعدها ليصافح العريس والعروس مودعًا.. ولكن العريس كان له رأيه الآخر.. فقد همس لضيفه الكبير وكان يسمعهما حشمت الذى يقف بجانبه:

ـ «وليمتك الفاخرة جاهزة فى مكان لا يخطر على البال.. غرفة نومى.. بعد العشاء المجهز سيكون فى انتظاركم صنف مذهل.. عندما تعطر غرفتى به سأستمد فحولتى من كرمك.. أرجوك لا ترفض دعوتى»

* * *

وفوق مخدع الزوجية ـ الذى لم يمس ـ تربع حشمت بركات وجلس قبالته أشرف على كرسى عريض وأمامه منضدة رخامية، تناهت إلى أسماعهما الموسيقى الصادحة والتحايا الزاعقة، وبدأ عنتر مكاوى «وكله» مشاويرهما من المطبخ إلى المائدة، فهجمت رائحة الطعام الشهى على خياشيم حشمت فسال لعابه، وعلق على ذلك قائلًا لأخيه:

ـ «أراهن أن هذا الطعام من صنع يديها.. العروس.. فوزية»

ـ «إذن، فقد سبق لك أن جربته»

ـ «كثيرًا.. جدًّا»

ضحك أشرف بركات قبل أن يغمز بعبارته:

ـ «وبدون زرنيخ.. طبعًا!!»

ـ «لا وجود للزرنيخ بعد أن نقلت حكمت وبشاير إلى دار للمسنين فى مصر الجديدة.. ظل يحاول فى ذلك ستة أشهر، وقدمت له هذه الخدمة فى نصف ساعة..»

ـ «من أجل هذا أخذ راحته فى تجديد الفيلا من الداخل والخارج»

ـ «من حكم فى ماله ما ظلم»

وبعد العشاء الذى استطعمه أشرف، وفى مهلة عابرة بين تعميرتين، توجه حشمت نحو أشرف بفكرة بدت كأنما قد طرأت على باله حالًا:

ـ «فوزية.. إحدى موظفاتك بالمجلس.. ماذا لو ضممتها لطاقم موظفيك بالقصر؟..

إعارة.. تُشْرف فيها على مطبخك.. وتصفف للهانم شعرها»

تفحصه أشرف:

ـ «أهذه مؤامرة؟»

تلجلج حشمت: «أى مؤامرة؟»

ضحك أشرف: «مؤامرة على قوامى الرشيق لأصير مترهلًا مثلك؟.»

بادله الضحك، ومال إليه متحدثًا بصوت خفيض:

ـ «صدقنى.. الهانم ستسعد بها للغاية.. ولا تنس أن الرجل الكبير صار يعشق سهرات الخميس الليلية عندك.. جدد له فى شكل الأصناف وعددها»

أطرق أشرف بركات برأسه قليلًا ورمق وجه أخيه بنظرة مخاتلة متفحصة:

ـ «دعنى أتحدث مع الهانم، فإذا وافقت سأبلغك بذلك»

* * *

وكان حشمت هو الأسرع بمفاتحة الهانم بشأن هديته إليها:

ـ «خبيرة يا هانم فى تصفيف الشعر.. وطاهية مبدعة، اسألى زوجتى عنها.. هى تعرفها»

ـ «سوف أسالها.. إذا شجعتنى سأطلبها من أشرف»

* * *

ثم أسرع إلى زوجته فأقنعها بفكرته الاقتصاديه:

ـ «وستكون تحت أمرك فى أىّ وقت.. ومجانًا.. كل ما عليك هو إقناع مدام أشرف بالموافقة على نقلها»

* * *

أما فوزية، فما إن قضت إجازتها الاستثنائية التى صرفتها فى شهر العسل، والتى ما إن عادت إلى عملها بالمجلس حتى وجدت قرارًا بانتدابها إلى استراحات الرئاسة..

أسرعت إليه، فظل يسمعها وهى تنقل إليه تعاستها لأنها تخسر مكانًا ارتاحت إليه وارتاحت به وهى لم تكد تهنأ بصديقاتها الجدد فيه.. فأقنعها بما ينتظرها من عز فى موقعها

الجديد.. فهى فى المجلس واحدة من عشرات.. لكنها فى القصر ستكون واحدة تالية لربة البيت.. والمسيطرة الكبرى على مملكة المطبخ، فسألته منزعجة:

ـ «هل جعلتنى طباخة؟..»

ـ «لا يا حلوة.. أنت مديرة القصر..»

ـ «فى أى قصر سأعمل؟»

ـ «قصر أحد كبار الرجال فى مصر المحروسة.. الرجل الذى يجلس قريبًا من العرش.. لا تقى أنى أصعد بك سلم المجد..»

«ما هو المجد لطباخة حتى لو كان مكانها قصرًا منيفًا؟!!»

هكذا همست لنفسها وهى ترمق حشمت بركات بروح المغلوبة على أمرها. فهى لا تنكر أنه نقلها معززة مكرمة من بئر الحيرة والتمزق إلى وادى الأمان والراحة، وأنقذ زواجها من السيد النحال، وقام بتوجيهه إلى ما هو فى صالحها.. فطلق خميسة.. وأخلى لها الفيلا من حكمت وبشاير.. وأتاح للسيد فرصة لقاء جمال عبد الناصر نفسه ـ هكذا أفهمها ـ فهو رجل يحرك الدنيا من مقعده.. إذ سرعان ما أتحفها بوظيفة عالية كتبوها بماء الذهب فى بطاقات الفرح. وها هو ينقلها بإشارة إلى قصر عال يقول إنها ستصبح مديرته..

«فإلى أين ستذهب بى يا من عقدت لى زفافًا أسطوريًا على زوجى.. وعبقت غرفة نومى بالحشيش قبل وصولى إلى سرير الهناء بساعات قليلة!!»

* * *

وذات ليلة من ليالى الخميس دبت حركة نشطة فى قصر أشرف بركات.. وعرفت فوزية من سيدتها أن القصر سيحظى بتشريف ضيف كبير، وقال لها واحد من طاقم الخدمة بقدر كبير من الرهبة:

ـ «ضيف كبير، يجب أن يسلم المُضيف بأنه هو الذى فى ضيافته.. قولى إنه الكوكب السيّار.. والبحر الذى لا يزور ولكنه يُزار..»

عكفت على تجهيز الأصناف المطلوبة.. وانتهت منها بالانتقال إلى جناح سيدتها

لتصفف لها شعرها.. لم تجدها على حالها المعروف من الهدوء والرزانة.. وجدتها متعجلة مضطربة وهى تلقى بأوامرها إلى الخدم.. وعرفت أن مرور الكوكب السيار هو السبب..

شاهدته من شرفة فى القصر يخطو إلى الحديقة بجسده الفارع وضحكته المشرقة، وأنفه المميز.. وشعره المتموج اللامع..

اقشعر بدنها.. إنه هو.. هو.. لا يمكن إلا أن يكون هو: الكوكب... والبحر.. والبشرى الذى يهرول أمامه كل البشر..

وعرفت أن المجد الذى وعدها به حشمت هو أنه منحها شرف إطعام.. جمال عبد الناصر.

* * *

كانت بين أحضان حشمت بركات تنعم ـ رغمًا عنها ـ بلذة مسروقة من شرف مستباح لسارق عظيم هو زوجها السيد النحال عندما قالت له:

ـ «عندما شاهدت جمال عبد الناصر اقشعر بدنى، وعرفت معنى ما قلته لى أنك ستصعد بى سلم المجد، فمن الفخر لواحدة مثلى أن تطعمه»

ـ «أفهم من هذا أنك تحفظين كل جمائلى»

ـ «مدى الحياة»

ـ «ولن ترفضى لى طلبًا»

ـ «ألا ترى بنفسك أين نحن الآن؟»

أزاح حشمت بركات الملاءة جانبًا فانكشف جسده العارى..

انزلق من حافة السرير.. فتح الدولاب.. أتى بشىء منه.. تبين لها أنها زجاجة الزرنيخ.. رفع الزجاجة المليئة أمام عينيها وهى تدور بين أصابعه:

ـ «سوف تضعين له ضعف الكمية التى اعتدت على وضعها لحكمت وبشاير»

ـ «لمن؟.. أضعها لمن؟.»

ـ «للضيف الكبير..»

فزعت .. وانتفضت.. وهبت من رقدتها.. وصرخت:

ـ «يالهوى.. لجمال عبد الناصر الـ..»

سد فمها براحته.. تخلصت منها.. رفعت رأسها للخلف.. أكملت صرختها:

ـ «يا مصيبتى.. قلت إنه سم.. حرام أن..»

عاد فسد فمها وراح يهز وجهها حتى صمتت.. وراح يحدثها بهدوء:

ـ «تتحدثين عن الحرام أيتها القاتلة.. من قال إنك تعرفين الحرام؟ أنت وابن النحال ما زلتما فى قبضة يدى.. وجسم الجريمة معى، أنا ما وضعت حكمت و بشاير فى الدار إلا لأسيطر على تقرير الأطباء عند موتها أنتما لن تفلتا بالفيلا والأرض مجانًا... ثمنها هو شنقكما..»

ـ «لم أكن أعرف.. لم أكن أعرف... ولن أفعل ذلك مرة ثانية»

هوى على وجهها بصفعة :

ـ «أرأيت خداعك؟.. ها أنت ترفضين طلبى..»

صرخت به:

ـ «كنت أقصد طاعتك فيما نحن به الآن.. لم أكن أعرف هدفك القذر»

ـ «زواج.. وفيلا.. ووظيفة.. وعرس كبير.. وتطليق خميسة.. كل هذا حتى أنام معك؟.. لماذا؟.. من أنت؟»

ـ «لو كنت أحب زوجى الكلب ما سلمتك نفسى، فأنت أكثر جبروتًا منه.. ارحمنى»

قام إلى الدولاب فأتى ببعض الملابس وألقاها أمامها:

ـ «ارتدى ملابسك»

ـ «هذه ليست ملابسى، ملابسى هناك على الشماعة»

ـ «ستتركينها هنا.. حتى يراها زوجك»

ـ «هل يأتى إلى هنا؟»

ـ «هنا.. يقابل عشيقاته..»

ـ «أنت تصنع لى فخًا.. ولكنه قد يقتلك»

ـ «هذا لو كان يملك شرفًا يدافع عنه.. إنه يتحرر من كل شىء حتى الشرف نفسه»

ـ «كلكم بلا شرف.. أقولها من سرير الزنا لرجل يتجه لقتل عبد الناصر»

ـ «أنتم قتلتم للحصول على فيلا.. ولكنا نقتل للحصول على المُلك يا زانية»

ـ «وهل لسافل مثلك أن يصبح ملكًا.. حشاش ولص وزان»

تقدم منها، وهوى بكفه الثقيل على وجهها فتكومت على نفسها وانخرطت فى البكاء، ولم تعد ترى أمامها إلا أشباحًا من دنياها الغائمة.. طاهر زين الدين.. أين هو الآن؟.. هو يعبر خيالها ممددًا على الترولى وفى عينيه حسرة وفى قلبه وجع وهو يستسلم لدافعيه إلى غرفة العمليات لبتر ساقه.. إنه استسلامه الأخير لهزيمته الأخيرة فى مسلسل هزائمه المريرة.. الآن فى فمها بقايا طعم عذب لأيام بريئة كان الحب الصادق فيها هو شعورها العظيم بروعة الحياة.. الآن ليس فى فمها سوى طعم القيح والصديد والشعور بالضياع وهى على متن موجة عالية جبارة تتجه بها إلى ظلمة البحر وأفواه الحيتان.

ـ «أعطنى ملابسى»

ـ «سأهدم الدنيا فوق رأسك»

ـ «لو كشفونى سأذهب إلى المشنقة»

ـ «لن يكشفك أحد»

ـ «هل سأضعه فى الطعام أم فى الشراب»

ـ «فى كليهما معًا.. سأعلمك..»

وانكفأت على نفسها تبكى. وعبرت بخيالها فى لحظة خاطفة صورته وهو يلوح للجماهير من سيارته المكشوفة. ثم هو يمرق أمامها بابتسامة المضيئة والناس حوله يجأرون بالهتاف: «ناصر... ناصر...» فعلا نحيبها وهى تنادى: «حرام.. حرام.»